الوثيقة

دوريّة تاريخية محكّمة

يصدرها

مركز الوثائق التاريخية بالبحرين

العدد الحادي والأربعون- السنة الحادية والعشرون

شوال ١٤٢٢هـ / يناير ٢٠٠٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

الوثيقة

دورية تاريخية محكّمة

يصدرها

مركز الوثائق التاريخية

بدولة البحرين

رقم التسجيل : MWTH 222

رئيس التحرير

الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

نائب رئيس التحرير

د. علي أبا حسين

مدير التحرير

السيد أحمد حجازي

العدد الحادي والأربعون - السنة الحادية والعشرون

شوال ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

الوثيقة

لجنة المجلة

العنوان : مركز الوثائق التاريخية ص.ب. : ٢٨٨٨٢
المنامة - دولة البحرين - تليفون : ٦٦٤٨٥٤
جميع المكاتبات ترسل باسم رئيس التحرير

فهرس

القسم العربي

كلمة العدد:

القسم الإنجليزي

كلمة العدد:

الغلاف
[قلعة قديمة – ومنازل قديمة ورجال]
للفنان السعودي
خالد عبدالله

كلمة العدد

بحرين الألفية الثالثة

بحرين الأسرة الواحدة

بقلم : سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

احتفلت البحرين منذ أيام بالعيد الوطني المجيد . والعيد الوطني هذا العام يكتسب صورة خاصة ومتميزة . . . فقد جاء مواكباً لعيد الفطر المبارك في توافق يشيع التفاؤل في القلوب والعقول . ثم هو أول عيد وطني في الألفية الثالثة التي تدخلها البحرين بكفاءة واقتدار، واستعداد كامل لمواجهة تحديات المستقبل .

والعيد يأتي بعد ذلك، وقد وضع حجر الأساس لإقامة الدولة العصرية . . . بتوجيهات حاسمة ومتتابعة ودقيقة، ومسيرة فتية يقود صفوفها حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة أمير البلاد المفدى، يؤازره صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى آل خليفة ولي

العهد الأمين، وصاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء الموقر . . . قيادة واعية ورشيدة وحكيمة، تعلم جيداً متطلبات العصر، وتدرك جيداً حجم التحديات التي تواجه البحرين كدولة صغيرة محدودة الموارد .

واستعداداً لهذا الغد المأمول، طرح سمو أمير البلاد مشروع ميثاق العمل الوطني، الذي أقره شعب البحرين بأغلبية ساحقة . ثم أرسيت قواعد الديمقراطية، وبدأ العمل لإقامة أركان الدولة العصرية المأمولة، التي تواكب العصر، وتحتوي تحدياته، فشكلت اللجنة العليا لتعديل الدستور، وأطلق سراح المسجونين السياسيين، وأزيل الحظر على البحرينيين في الخارج، ووجهت الدعوة لكل الكفاءات البحرينية للعمل صفاً واحداً من أجل بناء الوطن العزيز، والانطلاق كتيبة واحدة لصنع مستقبل أفضل لكل من يحيا فوق هذه الأرض الطيبة .

كل ذلك يؤكد أن بلادنا تقف على أعتاب مرحلة جديدة وهامة من تاريخها الحديث . . . نلتقي فيها جميعاً على بداية درب ممتد إلى آفاق الأمل المنشود . . . نصطف فيها جميعاً حشداً واحداً وكتيبة واحدة وصفاً واحداً خلف القيادة الحكيمة والمؤمنة لشعب وفيٍّ أصيل في مسيرة الخير والغد المشرق . . . وفي انطلاقة فتية نحو المستقبل الواعد . . . الذي نحلم به جميعاً لنا ولأبنائنا، وللأجيال القادمة من بعدنا .

إن البحرين وهي تنطلق مع بداية الألفية الثالثة . . . لتدرك تماماً عِظَم التحديات التي تحملها معها هذه الألفية . . . وتدرك أيضاً وبوعي مشهود أن

الأسرة الواحدة، وتلاحم الصف، ودعم الوحدة الوطنية، والوعي بما يلوح في آفاق الغد . . . كل ذلك يشكل الأساس المتين والمنطلق الصلب نحو المستقبل المأمول . إن حشد كل الطاقات والجهود، والبذل والعطاء، هو أفضل وقود لقاطرة التنمية والتحديث . . . وهو الزاد الذي لا ينفد في رحلة الغد الذي نريده سعيداً لشعب البحرين العريق . . . بحرين الخير والعطاء . . . بحرين العراقة والتاريخ . . . بحرين الأسرة الواحدة التي جمعت الحاكم والمحكوم في رباط من الحب والوفاء، وفي حشد مبارك من العمل الدؤوب لتحقيق الخير . . . كل الخير .

إن العمل يقتضي التلاحم كتفاً بكتف، ويداً بيد . . . لبناء الدولة العصرية التي ندخل بها عصراً جديداً تتسارع فيه كل الدول وتتصارع لتأخذ مكانها اللائق بها . . . ولتحتل مكانتها التي تعكس طموحها وطموح قيادتها في عالم الألفية الثالثة بكل معطياته وتحدياته .

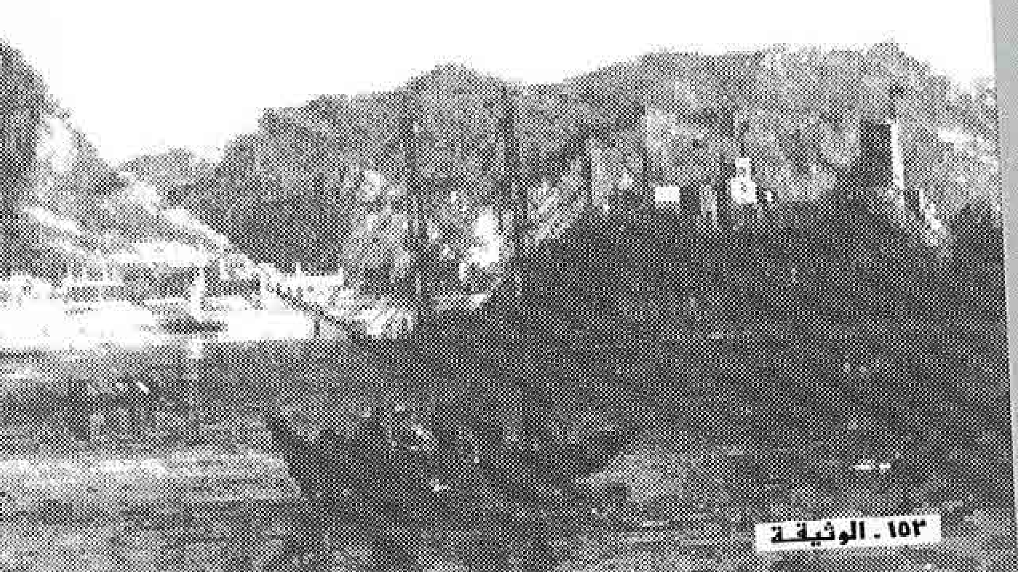
والله ولي التوفيق .

عبد الله بن خالد آل خليفة

عمان فى القرن التاسع عش

من خلال الوثائق الموجودة فى الأرشيفات الرسمي لسان بطرسبرج

بقلم الدكتور سيرجي جريجوريف
جامعة سانت بطرسبرج - روسيا



ر وبداية القرن العشرين

إن سلطنة عمان دولة عربية تمتد على الساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ويقع خليج عمان في شمالها، وبحيرة العرب في شرقها وجنوبها، وجمهورية اليمن في الجنوب الغربي، والربع الخالي للجزيرة العربية في غربها، والإمارات العربية المتحدة في الشمال الغربي. وتشمل أيضا قمة رأس مسندم الاستراتيجية وهي نتوء في الخليج العربي وخليج عمان. وشهدت هذه الدولة تقدما اقتصاديا وسياسيا وثقافيا هائلا ونجاحا باهرا منذ تولى جلالة السلطان قابوس الحكم في ١٩٧٠م.

لعبت سلطنة عمان، نظرا لموقعها في منطقة هامة من العالم أي في مدخل الخليج العربي، دورا مهما منذ قرون عديدة ولا تزال تلعب دورا هاما في الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية في شمال وغرب



المحيط الهندي كهمزة وصل بين الساحل الشرقي لأفريقيا وشبه الجزيرة العربية والسواحل الإيرانية في الخليج العربي وبلوشستان والجزء الغربي للهند . وكانت عمان مهداً للحضارات العريقة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد . واشتهرت ولاية ظفار الغربية ببخورها ولعبت دوراً هاماً في الحياة الدينية والاجتماعية لهذا الشعب العريق منذ قرون عديدة . وكان الشعب العماني من أوائل الشعوب العربية في اعتناق الإسلام ديناً في عام ٦٣٠م في حياة الرسول ﷺ .

وكان الأسطول التجاري والبحري العماني أكثر الأساطيل قوة وعدداً لقرون عديدة في غرب المحيط الهندي .

أبحرت السفن العمانية إلى الموانئ النائية في الصين وجنوب أفريقيا . وكانت عمان من أكبر الدول في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي وشملت أقاليم الجزء الشرقي للجزيرة العربية وبعض الجزر الواقعة في الخليج العربي، وأجزاء صغيرة من جنوبي غرب الساحل الإيراني، وساحل مكران من بلوشستان وسواحل وجزر شرق أفريقيا التي تملكها حالياً كل من الصومال وكينيا وتنزانيا وموزمبيق . وهكذا سيطرت عمان على سواحل الجزء الغربي للمحيط الهندي .

وكان البرتغاليون من بين السياح والملاحين الأوروبيين الذين جاءوا إلى الهند والخليج العربي أولاً بأول عن طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر . وإن استيلاء الأسطول البرتغالي على جزيرة هرمز في عام ١٥١٥م يرمز إلى تأسيس أول دولة أوروبية في المنطقة التي كانت عمان تلعب دوراً ريادياً فيها عموماً .

وكانت البرتغال تعارض عمان في الخليج العربي ولحد ما في غرب المحيط الهندي واستمرت الأوضاع على هذا المنوال لحوالي قرن حتى طردهم العمانيون من مسقط في ١٦٥٠م ومن جزر زنجبار وبمبا الأفريقية في ١٦٥٢م .

حاولت كل من هولندا وإيران على التوالي توطيد موقفها في الخليج وفي عمان نفسها . ولكن جلالة الإمام أحمد بن سعيد، مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية، طرد الإيرانيين من أرض عمان في ١٧٤١م . وأقيمت علاقات ودية جداً مع بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر . وقد لعبت هذه الدولة العربية من ذلك

الوقت دوراً هاماً في سياسة الإمبراطورية البريطانية في الخليج العربي وفي الجزء الغربي للمحيط الهندي . وكانت عمان أول دولة عربية تقيم علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم أن دولة روسيا تقع على بعد كبير من الخليج العربي وسلطنة عمان إلا أن الروس حاولوا من زمن بعيد زيارتها . وكانت قصص عن هذا البلد الثري الواقع في نقطة استراتيجية بالنسبة إلى المحيط الهندي على المدخل للخليج العربي شائعة بين عامة الناس في روسيا . وكان "إفانسي نيكيتن" أول روسي يزور عمان وهو تاجر من مدينة "طفير" الروسية الواقعة بالقرب من موسكو . وفي طريق عودته من الهند قام إفانسي نيكيتن بزيارة مسقط في مايو ١٤٧١م كما قضى بعض الوقت في البحرين وبعض الموانئ للإمارات الحالية . وكتب كتاباً بعنوان "السفر وراء ثلاثة بحار" وفيه معلومات قيمة عن المناخ والاقتصاد والوضع السياسي وأوضاع الحياة التقليدية وعادات الناس الذين سكنوا البلاد التي زارها في طريقه إلى الهند وأثناء عودته منها بما فيها عمان[1] . وأعجب التاجر الروسي بالطقس الحار والماء الدافئ الذي صادفه في منطقة مسقط في شهر مايو نظراً لأن الطقس في روسيا في ذلك الشهر كان بارداً على العموم .

وفي عام ١٦٩٥م سافر تاجر روسي باسم "سمن مالنكي" إلى الهند عن طريق البحر . (كنيته باللغة الروسية تعني "صغير") وعند عودته منها تعرض للنهب من القراصنة من السواحل العمانية الذين جردوه من كافة السلع التي كانت لديه من الشاي والفول والزنجبيل والسكر .. الخ . وكان ذلك بمثابة كارثة له لأنه تطلع إلى بيع سلعه التي جاء بها من الهند في الأسواق الروسية بأرباح مرتفعة . لأنها كانت نادرة وغالية جداً في روسيا . ولم تنتج روسيا الزنجبيل والتوابل وقصب السكر والشاي محلياً واستوردتها من البلدان الحارة في أفريقيا وآسيا .

بذلت الإمبراطورية الروسية اهتماماً بالغاً لإقامة علاقات متعددة الجوانب مع البلدان الشرقية كالإمبراطورية العثمانية وإيران ودول آسيا الوسطى في القرن الثامن عشر في عهد الإمبراطور بطرس الأول (يشار إليه في روسيا

كبطرس الأعظم) الذي كان مصلحاً عظيماً ورجل دولة وجنديا ممتازاً .

وكان بطرس العظيم يحلم باستكشاف طريق بري إلى الهند من روسيا عبر أقاليم كل من خيفا وخناتيه وإمارة بخارا وأفغانستان . وكان على علم أيضاً بالطريق البحري إلى الهند وقد قيل له أن جميع المراكب والسفن المتجهة للهند زارت ميناء مسقط على العموم . وأدرك هذا الحاكم الروسي أن كلاً من فرنسا وبريطانيا حاولت أن تسيطر على الطريق البحري من أوروبا إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح نظراً لتواجد توابعها ومستعمراتها حوله . ولم تكن القوات البحرية الروسية أو أسطولها التجاري قوياً آنئذ . فما كان بالإمكان لها أن تؤثر على، أو تكتشف البلدان النائية في المحيط الهندي والخليج العربي بما فيها عمان .

ولاحقاً في بداية القرن التاسع عشر كانت الإمبراطورية الروسية حليفة فرنسا النابوليونية لمدة قصيرة . قد خططت لتشارك فرنسا في حملة عسكرية ضد الممتلكات الإنجليزية في الهند . وحسب الخطة التي وضعتها القيادة العسكرية الروسية لهذا الغرض كان على الجنود الروس أن يتقدموا عن طريق إيران حيث ينضم إليهم الجيش الفرنسي . كما تقرر إرسال الأسطول الفرنسي والأسطول الروسي إلى الخليج العربي وخليج عمان لتأمين الجانب الجنوبي لقوات الغزو ضد الأسطول البريطاني والمارينز الملكيين . وفي هذه الحالة كانت السفن الحربية البريطانية تجوب المياه الإقليمية لسلطنة عمان .

لكن الأوضاع السياسية في أوروبا تغيرت بسرعة . وهاجمت فرنسا روسيا في ١٨١٢م وتحالفت مع بريطانيا العظمى . فأصبحت حملة فرنسا ضد الممتلكات البريطانية في الهند أمراً مستحيلاً . وأدى فوز الجيش الروسي ضد نابليون في العمليات الروسية ومن ثم سلسلة الهزائم التي تكبدتها فرنسا في أوروبا إلى تنازل نابوليون ونفيه وإضعاف مكانة فرنسا في أوروبا والعالم بأجمعه .

وأصبحت الإمبراطورية الروسية لمدة ما أقوى دولة أوروبية . وفي العشرينات من القرن التاسع عشر، كانت روسيا أقوى دولة في أوروبا ومكث أحد الفرنسيين في روسيا عقب الحرب مع نابليون ووجه نداء إلى الإمبراطور الروسي اليكساندر الأول ليفرض سلطة روسيا

على ميناء ومدينة مسقط . وتعرف هذه الوثيقة باسم: [**اقتراح المستر "سيرفبر" للاستيلاء على مدينة مسقط في الجزيرة العربية من أجل ترويج تجارة رابحة**] في مقتنيات الأرشيفات الرسمية لسان بطرسبرج - العاصمة السابقة للإمبراطورية الروسية .

إن الأرشيفات التاريخية المركزية الروسية الرسمية للاتحاد الروسي في مقرها في مدينة سان بطرسبرج تعتبر من أكبر الأرشيفات التاريخية في روسيا . وتم تأسيسها في عام ١٩٢٢م . وفيها أكثر من ٦ ملايين وثيقة مكونة من صور الوثائق والمخطوطات والرسائل الشخصية والرسمية والمراسيم الملكية والقرارات الصادرة والمعدة من أو من أجل أو من ممتلكات رجال الدولة والمؤسسات والمنظمات التابعة للإمبراطورية الروسية . وتعطي هذه الوثائق وصفاً مفصلاً وعريضاً لكافة جوانب الحياة للمجتمع الروسي من بداية القرن الثامن عشر حتى العشرينات من القرن العشرين . وهناك وثائق كثيرة في هذه الأرشيفات الرسمية تتعلق بالسياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية وعلاقات روسيا مع بلدان الشرق الأوسط . ويتعلق بعضها بعمان .

وتم تصنيف هذه الوثائق تحت أرقام خاصة بالدوائر المختلفة في الأرشيفات التاريخية الروسية المركزية الرسمية للاتحاد الروسي حيث تحتفظ بها .

[ن ٨٦] وثائق دائرة الشحن البحرية التجارية لوزارة التجارة والصناعة للإمبراطورية الروسية .

[ن ٩٥] وثائق وزارة المال للإمبراطورية الروسية .

[ن ٨٢١] وثائق دائرة الأديان الخارجية في وزارة الداخلية للإمبراطورية الروسية .

[ن ١٢٧٦] وثائق مكتب مجلس وزراء الإمبراطورية الروسية ووزارة التجارة والصناعة .

[ن ١٤٠٩] وثائق وزارة الخارجية للإمبراطورية الروسية .

وإن أرقام الدوائر المذكورة مقسمة إلى فئات مختلفة وعدة فروع للفئات . ويحتوي كل ملف على آلاف الصفحات مصنفة على أساس تاريخ الصدور والموضوع والموقف تجاه المؤسسات الرسمية والشخصية والأشخاص . .الخ . ويوجد في أرشيفات سان بطرسبرج

الرسمية المركزية عدد كبير من الوثائق الأولية عن عمان لفترة من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين .

إن الوثيقة المعنونة [**اقتراح المستر سيرفبر للاستيلاء على مدينة مسقط في الجزيرة العربية من أجل ترويج التجارة**] مكتوبة باللغة الفرنسية . وتتكون من ١٢ صفحة وخريطة مفصلة لشبه الجزيرة العربية نرى فيها المنطقة الشرقية للجزيرة العربية بما فيها الأراضي الحالية لسلطنة عمان والإمارات العربية المتحدة . والوثيقة مقسمة إلى ٣ فصول وكل فصل مكون من حوالي ٤ صفحات .

والفصل الأول يصف أهمية عمان وخاصة ميناء مسقط في الخليج العربي والشرق الأوسط بأكمله من المنظور الاستراتيجي والاقتصادي والتجاري .

ويعالج الفصل الثاني شرحاً للمنافع التي تعود على الإمبراطور الروسي والإمبراطورية الروسية ككل في حالة فرضها سيطرتها على عمان وميناء مسقط . ويجري الفصل حساباً لعدد السفن ووسائل النقل المطلوب إرسالها إلى مضيق هرمز من سان بطرسبرج (روسيا) لاحتلال ميناء مسقط .

ويتناول الفصل الثالث لهذه الوثيقة وصفاً لدولة عمان وهو هام جداً . ويحتوي على معلومات دقيقة ونادرة عن الطقس والزراعة والتركيب الجنسي والعقائدي لسكان عمان وأوضاع الحياة الشخصية في دولة عمان .

لا نعرف كثيراً عن مؤلف هذا التقرير . سوى أن كنيته "سيرفبر" وسكن سان بطرسبرج (عاصمة الإمبراطورية الروسية) في عشرينات القرن التاسع عشر . وحسب قول سيرفبر فإنه كان يعرف حاكم عمان شخصياً غير أنه لم يذكر اسمه . (كان حاكم عمان آنئذ صاحب الجلالة سيد سعيد بن سلطان الذي حكم لأكثر من نصف قرن من ١٨٠٦ إلى ١٨٥٦م) . وكان سيرفبر على إلمام باللغة العربية .

وقد جاء في تقريره بأنه زار مدينة مسقط متنكراً كمسلم . ونظراً لأنه رفع تقريره إلى الإمبراطور الروسي اليكساندر الأول في عام ١٨٢٤م وقال فيه بأنه أمضى بعض الوقت في روسيا فيما قبل وذكر فيه بأنه قد مر بعض الوقت عليه في روسيا قبل تقديم تقريره وهذا يعني بأنه قد زار عمان(٢) في بداية العشرينات من القرن التاسع عشر، ربما بعد قليل

من زيارة السائح الإيطالي المستكشف "في - ماوريزي" الذي زار مسقط في ١٨٠٩م متنكراً كمسلم . وأسمى نفسه الشيخ منصور ونشر تقريراً لاحقاً عن أسفاره في عمان[٣] .ومن هذه الناحية كان سيرفبر هو الشخص الثالث من الأوروبيين الذي يزور عمان بعد نيبور (الذي زار عمان في ١٧٦٥م واكتشفها لحد ما) . وفي نهاية التقرير الموجه إلى الإمبراطور الروسي التمس سيرفبر من جلالته، مقابل جهده في نقل المعلومات عن ميناء مسقط وإقامة علاقات روسية عمانية مباشرة، منحه رتبة عقيد فخري في كتيبة "حوصار" للحرس الإمبريالي الروسي (دون التزامه بتأدية واجبات العقيد) وكذلك منحه وساماً من أوسمة الإمبريالية . ومنحه أيضاً حق شراء وامتلاك قسائم الأرض في روسيا[٤] .

إن كاتب التقرير (اقتراح المستر سيرفبر . الخ) قدم حججاً لاحتلال مدينة مسقط في الجزيرة العربية من قبل البحرية الروسية وكتائب الجيش الروسي في الفصل الأول للوثيقة . وأورد الدلائل الآتية مؤيداً لاقتراحه :

١ - يقع ميناء مسقط في شرق الجزيرة العربية وهي ليست بعيدة عن ملتقى الخليج العربي بخليج عمان .

٢ - يلعب الخليج العربي نفس الدور في الشرق الأوسط الذي يلعبه البحر المتوسط تجاه أوروبا . وتأتي هنا السفن التجارية من جميع أنحاء العالم محملة بالسلع المتنوعة أي من جنوب الإمبراطورية التركية وجنوب إيران وأقاليم الجزيرة العربية .

٣ - تزور مئات السفن التجارية المختلفة من كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا موانئ البصرة والمحمرة والموانئ الإيرانية كبندر عباس وشاه بندر .

٤ - تقع جزيرة البحرين الغنية باللؤلؤ في الخليج العربي .

٥ - إن كافة السفن الحربية والتجارية الداخلة والمغادرة للخليج العربي، تمر بمسقط وبجانب الساحل العماني .

٦ - الدولة الأوروبية التي تسيطر على سواحل عمان بجانب الخليج العربي وخليج هرمز والجزر الواقعة على مضيق هرمز وميناء مسقط نفسها، هي التي تسيطر على

الوضع السياسي والاقتصادي في هذين الخليجين الهامين في الجزء الغربي للمحيط الهندي[٥] .

أورد سيفبر في تقريره المكاسب السياسية والاقتصادية التي تعود على روسيا إذا احتلت ميناء مسقط . وهي كالآتي :

١ - عقب احتلال روسيا لمسقط إذا نشبت حرب بينها وبين تركيا أو إيران فيمكن لروسيا أن تمارس الضغط أو الابتزاز عليهما في الخليج العربي .

٢ - تزداد الإمبراطورية الروسية قوة في أوروبا خاصة في مجال علاقاتها واتصالاتها مع كل من بريطانيا وفرنسا .

٣ - إن الاستيلاء على مسقط يعطي لروسيا نفوذاً على أقاليم الجزيرة العربية ككل .

٤ - تكسب الإمبراطورية الروسية إمكانات توسعية في الجزء الغربي للهند والولايات الجنوبية في إيران .

٥ - المناجم النحاسية والترسيبات المعدنية الطبيعية الأخرى لخامات المعادن مثل الذهب والرصاص التي توجد في عمان بكثرة سترفع مدخول الإمبراطورية الروسية إذا تولت استغلالها الجيد . وفهرس سيفبر في تقريره الأماكن والأقاليم الغنية بتلك المعادن في عمان . ويصف من ضمنها ميناء مسقط حيث توجد فيه معادن النحاس، وشواطئ جزر كوريا موريا حيث تكثر فيها، حسب قول سيرفبر كميات الذهب والرصاص[٦] .

اقترح كاتب التقرير للإمبراطور الروسي اليكساندر الأول إرسال أسطول روسي لاحتلال مسقط مكوناً من المراكب التالية :

طراد واحد وفرقاطة واحدة وسفينة شراعية بصاريين و٢ أو ٣ ناقلات حربية لنقل البحارة الروس والعتاد الحربي والذخائر من روسيا إلى ميناء مسقط . وأكد سيرفبر ضرورة الحفاظ على سرية العملية العسكرية خاصة من أعضاء الحكومة البريطانية أو عملائها . أوصى بتركيز القوات الروسية في مسقط في القلعتين القديمتين (البرتغاليتين سابقاً) الواقعتين على خليج مسقط[٧] .

ومن أجل إنجاح هذه الحملة العسكرية والسياسية قدم سيرفبر توصية للإمبراطور الروسي بإنشاء اتصالات دبلوماسية وسياسية حميمة مع حاكم عمان بفتح سفارة روسية في مسقط (طبعا برئاسة سيرفبر نفسه) . وعلى السفارة أن تتفاوض مع السلطات المعنية على الشروط لإبقاء الحرس والأسطول الروسي في مسقط بصفة دائمة . ومن ثم ذكر سيرفبر مفردات الهدايا التي يجب أن ترسل إلى السفارة الروسية في مسقط لتقديمها لكل من جلالة سلطان عمان ووزرائه وقادة البلاد التقليديين الآخرين . ومن بين الهدايا جاء ذكر علب فضية وذهبية صغيرة مزينة بأحجار كريمة ومجوهرات متنوعة، ومسدسات وسيوف ومنظارات وأقمشة وفابريكات خاصة من لون أزرق على أساس أن سلطان عمان يفضل اللون الأزرق[٨] . وإذا قرر الإمبراطور الروسي تعيين سيرفبر سفيراً فوق العادة مطلق الصلاحية لروسيا في بلاط جلالة سلطان عمان، فإن كاتب التقرير مستعد لإرسال أخيه لروسيا رهينة كي يثبت ولاءه إلى الإمبراطور الروسي والإمبراطورية الروسية ككل .

ومن الناحية التاريخية تتضمن هذه الوثيقة التي ظلت غامضة حتى الآن، معلومات مشوقة جداً عن سلطنة عمان ووصفاً مفصلاً لطقسها وموقعها الجغرافي وزراعتها وتركيب سكانها من حيث الأديان والأجناس والملامح البارزة في سيرة سكانها . وعلى الرغم من أن هذا الوصف يعتبر قصيراً اليوم ألا أنه كان وصفاً مفصلاً آنئذ للحياة العائلية كما كانت في مستهل القرن التاسع عشر .

ورفع التقرير للإمبراطور الروسي الذي لم يكن على معرفة بالأوضاع السائدة في ذلك البلد الشرقي الغامض البعيد (فما بال المواطنين الروس العاديين غير العلماء أو المستشرقين الذين ما كانوا يعرفون شيئاً عن عمان !) . وتفيد المعلومات التي أوردها سيرفبر في تقريره بأنه زار عمان فعلاً وجمع بعض المعلومات عنها .

وصف سيرفبر دولة عمان على النحو الآتي :

"إن المدينة الرئيسية في عمان هي رستاق . وتقع رستاق في المنطقة الخلفية لعمان على بعد حولي ٥٠ فرشت من ميناء مسقط . (الفرشت في الاصطلاح الروسي يساوي مسافة ميل) . ويسكنها المسلمون من مذهب خاص يسمى بيسيون أو أباضيون .

إن العمانيين ذوو أخلاق كريمة يتصفون بالشجاعة كما أنهم مخلصون . ويبدون الصداقة نحو الأجانب . ويؤمنون بالسحر والكيمياء . وجريمة السرقة غير معروفة لدى العمانيين . وكثيراً ما يترك العمانيون سلعهم التجارية والممتلكات في شوارع مسقط دون حراسة بدلاً من الدكاكين والمخازن . وكل من يجوب الشوارع ليلاً يجب عليه أن يحمل في يده مشكاة .

ويكثر ضباط الشرطة في شوارع مسقط . وعندهم خبرة وتدريب ملموس . إن الجبال الموازية للساحل العماني قاحلة وغير مزروعة جيداً بصفة عامة . لكن الوديان التي تتخلل هذه الجبال على الجانب الآخر خصبة ومزروعة جيداً . فتتمتع دولة عمان وميناء مسقط بوفرة الفواكه والخضراوات واللحوم الطرية . وتكثر الأسماك في خليج عمان وفي الخليج العربي على السواء . كما توجد مناجم رصاص حول مدينة مسقط .

وتوجد مزارع كثيرة للقمح والذرة والتمر والعنب . ويزرع القمح في منطقة مسقط في ديسمبر ويحصد في نهاية مارس . ويحصد التمر من فبراير إلى أبريل . والمحاصيل الزراعية في سلطنة عمان بشكل عام غزيرة ومتوافرة . ويوجد البن في عمان غير أن العمانيين لا يزرعونه بصفة منتظمة .

يبدأ فصل الأمطار في شهر أكتوبر وينتهي في ديسمبر . وتكون فترة الصيف في عمان في يناير وفبراير جافة وتشبه موسم الخريف في إيطاليا . ويكون الطقس في سبتمبر وأكتوبر لطيفاً ومعتدلاً ويأتي بالثمار الأولى . بينما يشتد

الصيف من يونيو إلي أغسطس غير أن الرياح من البحر تخفض شدة الحرارة بعض الشيء"[(٩)] .

وفي الختام لاحظ سيرفبر بأن المسافة بين عاصمة الإمبراطورية الروسية، سان بطرسبرج وميناء مسقط في عمان ليست كبيرة للغاية كما يبدو، ولا تزيد عن المسافة بين لندن في بريطانيا العظمى وكالكوتا في الهند أو بين مدريد في أسبانيا ومستعمراتها في أرخبيل الفلبين في المحيط الهادي[(١٠)] .

ومن أجل توضيح تقريره أرفق معه سيرفبر خريطة تحت عنوان "خريطة جزء من آسيا لسيرفبر" أي خريطة (البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وأقاليم تركيا وإيران ومصر وشرق أفريقيا وغرب الهند واليمن والجزيرة العربية وعمان) . وتعرض الخريطة كلاً من المدن الكبيرة والأنهار الرئيسية أيضاً لهذا الجزء من آسيا بالتركيز على عمان . وليست الخريطة دقيقة وترسم المعالم على وجه التقريب وهي في بعض الأحيان تظهر بيانات قديمة . ولا توجد فيها معالم جغرافية هامة كالمدن والجبال والقرى والصحاري . .الخ . وهذا أمر طبيعي لأن أقاليم الجزيرة العربية خاصة الجزء الشرقي منها لم تكن معروفة لدى السياح والعلماء الأوروبيين آنئذ الذين لم يتوجهوا إليها كثيراً . ومع ذلك عرضت الخريطة عدة أماكن ومدن هامة في عمان كالرستاق ومسقط وجزر كوريا موريا وبعض الأماكن من الإمارات المتحدة العربية الحالية .

وحسب الكتابات المتواجدة في الصحيفة اليومية المسماة "صحيفة كامير - فوريير" التي نشرت قائمة أسماء الأشخاص الذين كانوا مخولين لعقد مقابلات رسمية مع أشخاص بارزين نيابة عن الإمبراطور الروسي . جرت هذه المقابلات بدقة وصرامة . ودخل اقتراح سيرفبر حول احتلال مدينة مسقط لترويج تجارة رابحة ضمن هذه المقابلات . ولم يتلقاه الإمبراطور في عام ١٨٢٤م أو حتى في ١٨٢٥م وهو العام الذي توفى فيه الإمبراطور .

ولا تحمل صفحات هذه الوثيقة أي علامات أو ملاحظات للإمبراطور، وعلى الأرجح أنه لم يرها ولم يتخذ أي قرار في الموضوع سواء كان سلباً أو إيجاباً حول ما إذا كان اقتراح احتلال ميناء مسقط من قبل البحارة والجنود الروس لإنشاء قاعدة بحرية فيها وهي بالقرب من

ملتقى الخليج العربي والخليج العماني مقبولاً أم لا .

وكانت هذه الوثيقة مجهولة إلى الآن ولم يطلع عليها الروس أو العمانيون أو العالم الخارجي أو أحد من العلماء أو المستشرقين أو المستعربين . ويمكن اعتبارها وثيقة مشوقة جداً (ولو أنها عدوانية وغريبة من الناحية الروسية) تعالج بعض الجوانب للاتصالات الروسية العمانية .

وهذا التقرير ليس طويلاً من حيث الحجم ولا يزيد عن ١٢ صفحة ومع ذلك فهو ملفت للنظر بصفته وثيقة مهمة تاريخية ذات معلومات عن عمان في القرن التاسع عشر من شخص قام بزيارتها فيما قبل .

لقد شهدت الإمبراطورية الروسية تنمية اقتصادية واسعة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ونتيجة توسعة شبكة سكة الحديد في روسيا فقد سجلت أرقاماً قياسية في إنتاج المنسوجات والصناعات الثقيلة كالصلب والحديد والتنقيبات النفطية وتعدين الفحم . . الخ . وقد تطلب التوسع في الصناعات الروسية وتجارتها مع العالم الخارجي أسواقاً جديدة لمنتجاتها .

وبث نفوذها على الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية آنئذ أدى إلى التنافس الدائم والمتزايد مع الدول الاستعمارية الأخرى، خاصة بريطانيا واليابان .

وفي نهاية القرن التاسع عشر عادت روسيا إلى اهتمامها بالشرق الأقصى المرتبط بسكة حديد عبر سيبيريا . وجعل سيبيريا مستعمرة . مع التخطيط للتوغل الاقتصادي في الصين . وحصلت روسيا في عام ١٨٩٨م على أرض مؤجرة لخمسة وعشرين عاماً في شبه جزيرة ليوتنج بما فيها ميناء آرثر (لوشان) وهو أول ميناء روسي خال من الثلج في الشرق الأقصى ومتصل بسكة حديد بـ "هاربين" . وأثناء ثورة "بوكسنج" في الصين في عام ١٩٠٠م احتلت القوات الروسية مانشوريا بأكملها وظلت هناك حتى منيت بالهزيمة على يد اليابان في عام ١٩٠٥م . وفقدت روسيا سخالين وميناء آرثر .

ومن أجل تأسيس وتوطيد صلاتها السياسية والعسكرية والتجارية مع ولاياتها النائية في الشرق الأقصى، الواقعة على بعد ٦ آلاف ميل من سان بطرسبرج، عاصمة الإمبراطورية

الروسية، أسست روسيا عدة خطوط بحرية للسفن البخارية في نهاية القرن العشرين . وبدأت الرحلات من الموانئ الروسية في البحر الأسود وانتهت في الموانئ الواقعة في الشرق الأقصى .

وفي غضون نفس الوقت أو على الأرجح قبل ذلك بقليل بدأت الإمبراطورية الروسية إرسال سفنها الحربية إلى الخليج العربي لاستعراض العلم الروسي ولاكتشاف السواحل الخليجية التي اعتبرتها بريطانيا في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ذات أهمية خاصة لها. وكان الطراد الروسي "نزني نوفغورد" أول السفن الحربية التي تجوب المياه الخليجية وتزور موانئها بما فيها ميناء مسقط في عام ١٨٨٣م . ولاحقاً استهدفت روسيا تقوية أسطولها البحري في الباسيفيك ونقلت إليه سفنها الحربية والطرادات والمدمرات من أساطيلها في بحر البلطيق والبحر الأسود . وفي طريقها إلى القاعدة الروسية في الشرق الأقصى قامت سفنها الحربية بزيارات إلى عدة موانئ في البحر المتوسط والبحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي والهند وجنوب شرق آسيا والصين واليابان . وقد زار معظم السفن الحربية والسفن التجارية مسقط في عمان أولاً بأول . ومن بين السفن الحربية التي زارت مسقط كانت كل من "جلياك" والطرادات "اسكولد" و"فارياج" و"فرنجيان" وأخرى كثيرة(١١) .

وقد بذل رجال الدولة الروس في بداية القرن العشرين اهتماماً كبيراً بالخليج العربي والأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في هذه المنطقة الآسيوية . وخطة ألمانيا لمد سكة حديد بين برلين وبغداد إلى سواحل الخليج العربي عن طريق إقليم الكويت الحديثة ومحاولاتها لتوطيد موقعها في الشرق الأوسط خلقت بعض التوتر في الدوائر الروسية . وكان إمكان التغيير في التوازن السياسي بين الدول الأوروبية في مواقفها في الخليج حيث لعبت بريطانيا دوراً بارزاً فيه، علماً بأن روسيا كانت حليفة بريطانيا آنئذ هو السبب الآخر للسفن الحربية الروسية لتزور المنطقة . ولم ينس بعض رجال الدولة الروس ما يسمى وصية بطرس الأعظم . ومن محتويات هذه الوثيقة (ربما مزورة) مادة تشير إلى الوصول إلى مياه دافئة لتخدم مصالح الإمبراطورية الروسية . والموانئ الخليجية كانت أقرب الأماكن في مياه

دافئة . وكان هذا هو السبب الآخر لزيادة اهتمام روسيا بالأوضاع السياسية والاقتصادية في الخليج العربي .

إن روسيا بصفتها بلداً آسيوياً وأوروبياً في نفس الوقت، كانت لها صلات قريبة مع معظم البلدان والشعوب في الشرق الأوسط منذ قديم . وقد زار الروس بلدان الشرق الأوسط لأغراض مختلفة، السياسية والدينية والتجارية والعلمية الثقافية . .الخ . والعلماء الروس درسوا التاريخ والثقافات واللغات في بلدان الشرق الأوسط . وأقام التجار الروس علاقات تجارية مربحة للطرفين مع بلدان الشرق الأوسط . ولكن في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لم تكن روسيا على دراية تامة بالدول والإمارات الواقعة على السواحل العربية في الخليج .

لقد أرسلت عدة حملات علمية روسية إلى القرى والأماكن الواقعة على الساحل الغربي للخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ولا يمكن أن ننسى العالم الروسي "نيكولاي بوجويافلينسكي" أستاذ البيولوجيا في جامعة موسكو الرسمية، الذي زار كلاً من المحمرة والكويت والمنامة ومسقط في ١٩٠٢م . وقام بدراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والجغرافية السائدة في البلدان والدول الواقعة على السواحل الخليجية وبذل اهتماماً بالغاً بتعميق الروابط السياسية بين روسيا وبين حكام كل من الكويت والبحرين وعمان . غير أنه لم يهمل الهدف الأساسي لزيارته وهو اكتشاف ودراسة المصادر البيولوجية الموجودة في الخليج العربي والجزيرة العربية . وأخيراً، نشر مستشرق روسي من موسكو، جنادي جورياشكين كتاباً باللغة الروسية يشرح فيه تفاصيل هذه الزيارات .

ويعتمد هذا الكتاب على التقرير حول الزيارة المحفوظ في الأرشيفات الروسية[١٢] . وكان العلماء والدبلوماسيون والتجار الروس على معرفة أكثر بالساحل الإيراني في الخليج من الساحل العربي .

وكانت للإمبراطورية الروسية اتصالات وثيقة مع الزعماء والموظفين ورجال الدولة للولايات الإيرانية الجنوبية وحكام إيران وليس مع الدول الخليجية العربية . وكانت قد فتحت عدة قنصليات إمبريالية روسية في مدن

إيرانية بما فيها الولايات الجنوبية . وفي نفس الوقت يجب ألا ننسى أن وضع روسيا في شمال إيران كان قوياً بينما كان وضع بريطانيا أقوى بكثير في الولايات الجنوبية .

ومعظم العلماء والسياح والدبلوماسيين والصحفيين الذين زاروا أو سكنوا البلدان على الساحل الغربي للخليج في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كتبوا مقالات وتقارير وبحوثاً حول الجوانب المختلفة لأنماط الحياة في هذه البلدان .

إن المقالات والوثائق المختلفة عن بلدان الخليج العربي ومنها عمان، والموجودة في الأرشيفات الرسمية للقوات البحرية للاتحاد الروسي تصف الجوانب المختلفة للحياة السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية والأنشطة التقليدية وأنواع الحرف والمهن . .الخ .

ويمكن القول بأن الأرشيفات الروسية الرسمية والجرائد الروسية، سواء المطبوعة باللغة الروسية أو اللغات المستخدمة من قِبَل مسلمي الإمبراطورية الروسية، هي كنز للمعلومات والمواد التاريخية الموثوقة عن تلك البلدان بما فيها عمان .

وهناك أرشيف هام آخر للوثائق الروسية التاريخية وهو الأرشيفات المركزية الرسمية للقوات البحرية . وموقعها أيضاً في سان بطرسبرج . وتعتبر من أقدم الأرشيفات في روسيا . وهي الأرشيفات الوحيدة الخاصة التي تتعلق بسجلات ووثائق تاريخ البحرية الروسية والأسطول التجاري الروسي . وتم تأسيسها في ١٧٢٤م بأمر من الإمبراطور الروسي بطرس الأعظم . وتشمل أكثر من ١,٢ مليون صورة للوثائق والخرائط ويوميات السفن والرسوم والمسودات وصور السفن والمخطوطات والمطبوعات المرتبطة بتاريخ الأسطول الروسي والبحرية الروسية .

ويرجع بعض الوثائق إلى العلاقات بين روسيا وبلدان الخليج العربي بما فيها عمان . وتوجد فيها الوثائق المتعلقة بالاقتصاد والهيكل الإداري والعلاقات الدبلوماسية والسياسية العمانية مع البلدان العربية الأخرى وبلدان الشرق الأوسط والعالم .

ونظراً لأن بواخر الأسطول التجاري الروسي والسفن الحربية الروسية كانت تجوب المياه الخليجية فأرشيفاتها تحتوي على معلومات قيمة عن سلطنة

عمان .وكان على نواخذة السفن الحربية والتجارية الروسية التي زارت عمان، أن يرفعوا تقاريرهم عن زياراتهم للموانئ الخليجية إلى هيئة الأركان البحرية أو لجنة مديري الشركات الملاحية .

وكثير من الشركات الملاحية مثل الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة (إحدى أكبر الشركات الروسية) والأسطول الروسي التطوعي (الفيستا) وغيرها كانت تشغل خطاً بحرياً تجارياً منتظماً إلى الخليج العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وتحفظ الأرشيفات الروسية المركزية للقوات البحرية حسب التصنيف التالي:

[ن ٢٩]

الوثائق المتعلقة بالجنرال الروسي (ن ن بكليميشيف) . ومنها التقارير لنواخذة البواخر الروسية التجارية التي أبحرت إلى الخليج العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

[ن ٤١٧]

وثائق الأركان العامة للبحرية الروسية . وتشمل تقارير نواخذة السفن الحربية التي زارت الخليج بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وتتعلق بعض الوثائق بزيارة السفن الحربية إلى ميناء مسقط، عاصمة عمان .

[ن ٤١٠]

وثائق مكتب وزارة البحرية الروسية وتتضمن معلومات عن الخليج العربي وسواحل الخليج وأسلوب الملاحة في مياهه .

ونظراً لكثرة الوثائق عن سلطنة عمان ومدينة مسقط (أكثر من ٥٠ وثيقة) الموجودة في الأرشيفات، أختار هنا ثلاثاً فقط للتعرف عليها وتفسيرها . وهذه الوثائق مكرسة تذكاراً لزيارة سفينتين حربيتين هما "فارياج" و"أسكولد" وسفينة بخارية تجارية "كورنيلوف" إلى مسقط في بداية القرن العشرين .

وكما ذكرت سابقاً، فإن الحكومة الروسية ووزارة الحرب أرادت تقوية أسطولها في الباسيفيك . ونقلت عددا من السفن الحربية من البلطيق والبحر الأسود إلى الباسيفيك . ومعظمها مرت بميناء مسقط من بين الموانئ الأخرى .

ومن أوائل السفن البخارية الروسية التي أبحرت إلى الخليج العربي من ميناء

أوديسا في البحر الأسود، كانت الباخرة "كورنيلوف". وزارت ميناء مسقط الرئيسي في سلطنة عمان في عام ١٩٠١م. ورست فيها لثلاثة أيام من ٣ إلى ٦ مارس.

ومن بين طاقم "كورنيلوف" كان البائع المتجول الأرشد من الشركة الروسية للملاحة والتجارة "كلاسنج" الذي وصف ميناء مسقط في تقرير بعنوان: **"تقرير عن السفر الأول للباخرة "كورنيلوف" إلى الخليج من ٣ فبراير إلى ١١ مايو ١٩٠١م"** [١٣]:

> *"تقع مدينة مسقط على ساحل خليج صغير يتسع لإرساء عدد قليل من السفن. وعلى العموم ترسو السفن على بعد ربع ميل من الساحل. ومرت باخرتنا بقلعة مسقط مزينة بالعلم الروسي التجاري والعلم العماني على ساريتها ربما لأول مرة في تاريخها. وأطلقت طلقات تحية من مدفعها. وردت المدافع العمانية من جانبها لتحيتنا.*
>
> *وأكرمني صاحب الجلالة سلطان عمان بمنح فرصة لي رسمياً لأقدم نفسي أمامه. وأعرب عن ارتياحه بوجود سفينة روسية في الميناء*[١٤]. *وبإمكان سلطنة عمان أن تشارك روسيا في التجارة بصفة رئيسية في الخليج على الرغم من أن حجم واردات عمان ليس بكبير.*
>
> *وتستورد عمان عامة الكيروسين والسكر والخشب والصناديق الخشبية لتعبئة التمور فيها. و(كل صندوق خشبي يتسع لأربع علب من الكيروسين - جريجوريف).*
>
> *وكان حجم الصادرات العمانية ضخماً. والتمور من صادراتها الرئيسية. ويمتد موسم التمور من سبتمبر إلى يناير. وتصدر عمان حوالي ٤٠ ألف طن من التمور سنوياً من ثلاثة أنواع من حيث جودتها. وتصدر من أحسن نوع منها حوالي ١٠ آلاف طن في الصناديق الخشبية والأكياس. ومن الدرجة الثانية تصدر في أكياس بقيمة ٧٥ روبية لكل كيس. ويكلف النوع الثالث من ٤٠ إلى ٥٠ روبية لكل طن. وتقسم التمور الجافة إلى قسمين. والقسم الأول*

يكلف ٢٠٠ روبية لكل طن والنوع الثاني حوالي ١٥٠ روبية .

والتمر من أحسن نوع أصفر اللون . وينضج في عمان مبكراً بشهرين عن تمر البصرة . وتصدر التمور من الدرجة الأولى إلى أوروبا فقط . والأنواع الأخرى تصدر عبر العالم كله .

وتصدر عمان الليمون الجاف وعرق اللؤلؤ . وعرق اللؤلؤ إما من الناتج المحلي أو يستورد من سقطرا . وتصدر سلطنة عمان الليمون الجاف إلى كل من البصرة وبغداد . وتبلغ صادراتها منه ٢٠٠ طن . وسعره ١١٢ جنيهاً استرلينياً لكل طن(١٥).

إن اللغات المستخدمة في الموانئ الخليجية هي العربية والإنجليزية . ومن السلع الروسية المقبولة في الدول الخليجية وعمان، السكر والسكر الكريستال والكيروسين . ولدى روسيا فرص كثيرة لتكثيف تجارتها في هذا الجزء من آسيا"(١٦).

إن الحكومة الإمبراطورية الروسية، وفقاً لأوامر الإمبراطور نيكولاس الثاني، أرسلت الطراد "اسكولد" إلى الخليج العربي في خريف عام ١٩٠٢م . وأصدر الأميرال هافيلان قائد البحرية تعليمات مفصلة إلى قبطان السفينة العميد البحري رانشينستاين عن أهداف الرحلة التي يجب أن تنقل إلى طاقم السفينة الحربية أثناء السفر . وتتضمن وثيقة من مقتنيات الأرشيفات المركزية البحرية الفيدرالية النقاط الرئيسية من تلك التعليمات . وتحمل الوثيقة العنوان الآتي: "تعليمات رئيس البحرية نائب الأميرال هافيلان إلى العميد البحري رانشنستاين، قائد الطراد "اسكولد" مؤرخه في ١٥ أكتوبر ١٩٠٢م . سري جداً"(١٧) أن هذه الوثيقة مهمة سياسياً وتاريخياً . وتتضمن خلاصة الأهداف السياسية والدبلوماسية الروسية في الخليج العربي وعمان في بداية القرن العشرين، ووردت فيها النقاط التالية :

١ - الغرض الأساسي من زيارة "اسكولد" للخليج العربي هو استعراض علم الإمبراطورية الروسية هناك .

٢ - تؤكد الزيارة للعالم كله وللعرب على ساحل الخليج في أول الأمر، بأن الخليج العربي يمثل مياهاً مفتوحة وقابلة للملاحة فيها ومتاحة

للسفن التجارية والسفن الحربية لكافة بلدان العالم وليس للسفن التي ترفع العلم الإنجليزي فحسب .

٣ - نظراً لمحاولات إمبراطورية ألمانيا مد نفوذها إلى منطقة الخليج العربي، تكون زيارة الطراد الروسي للخليج ملائمة من الناحيتين السياسية والاقتصادية . ويشاهد سكان السواحل الخليجية أن البحرية الروسية قوية ومجهزة بالسفن الحربية الحديثة وأن أغراض روسيا سلمية تماماً . وتطمح روسيا إلى علاقات ودية مع سكان الخليج وحكامه .

٤ - وعليك وعلى الضباط المرؤوسين الاهتمام باكتشاف الموانئ العربية الخليجية . إنها مهمة من وجهتي النظر العسكرية والتجارية . وعليك أن تدرس سعة الموانئ من الناحية التجارية .

٥ - يجب الاهتمام الخاص بميناء مسقط، الميناء الرئيسي لسلطنة عمان . وللحكومة الفرنسية محطة فحم هناك لتزويد البواخر التجارية والحربية الفرنسية بالوقود . ولا يمكن للمحطة الفرنسية للفحم أن تزود البواخر والسفن الروسية بالفحم الفرنسي . وعليك أن تحاول عقد لقاء شخصي مع جلالة سلطان عمان وتبحث عن إمكانية إقامة محطة فحم في مسقط لتزويد السفن الروسية بالفحم"[١٨] .

وعلى الباحث عن تاريخ عمان الذي يفحص الوثائق التاريخية الموجودة في الأرشيفات الروسية في سان بطرسبرج، ألا يجهل وثيقة مشوقة مهمة أخرى تسمى "تقرير العميد البحري "رانشنستاين"، قائد الطراد الروسي "اسكولد" عن الرحلة إلى الخليج العربي المؤرخة في نوفمبر ١٩٠٢م"[١٩] .

إن هذه الوثيقة التي كتبها أحد كبار ضباط البحرية تتضمن عدة ميزات عسكرية ويتناول الكاتب أولاً وصفاً لميناء مسقط وخليجها ورأس الطريق ومخازن الفحم والقلاع التي دافعت عن الميناء من جهة البحر والأسطول التجاري العماني والجوانب السياسية والاقتصادية الأخرى غير المعروفة لدى الروس عامة . ونظرا لدقة تعبير هذه الوثيقة الهامة قلباً وقالباً، أريد أن أنقل بعض المقتطفات منها دون تعليق:

"لقد زار الطراد اسكولد ميناء مسقط في ١٩ نوفمبر ١٩٠٢م . وكانت

السفينة الحربية الإنجليزية (ريدبر يست) راسية في الخليج على رأس الطريق . وأطلقت اسكولد طلقات نارية تحية للجانب العماني مع رفع العلم العماني على ساريتها . وأطلقت المدافع في باب القلعة التي كانت تحرسها طلقات نارية رداً على تحياتنا . ورفع العلم الروسي على القلعة . وما كان لدى الإدارة العمانية علم روسي فحصلت عليه من القنصلية البريطانية المحلية .

إن مسقط مدينة رئيسية لسلطنة عمان، تدعى أحياناً "سلطنة مسقط" . ولا يسري الأمر السلطاني إلا في حدود مدينة مسقط وضواحيها . ويمكن اعتبار القبائل البدوية التي تسكن عمان شبه مستقلة . ويبرم جلالة السلطان اتفاقات خاصة معها وأحياناً يدفع لها معونات مالية . ويتلقى سلطان عمان من حكومة الهند سنوياً ما يعادل ١٥٠ ألف فرنك فرنسي . ومصدر الدخل الآخر هو الضرائب المفروضة على البضائع المستوردة من قبل الأجانب . وتبلغ هذه الضرائب حوالي ١٥٠ ألف فرنك فرنسي .

إن عدد الأوروبيين في مسقط سبعة فقط . وهم القناصل من كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وأربعة تجار .

امتلك سلطان عمان سابقاً باخرتين استخدمهما للأغراض التجارية . لكنهما عاطلتين عن العمل وترسيان في الخليج . واشترى السلطان باخرة جديدة من بومباي لكنها لم تصل إلى مسقط حتى الآن [٢٠] .

ويأتي البريد إلى مسقط على ظهر باخرة بريطانية من الموانئ الهندية . ويصل البريد من باريس بعد ٢٠ يوماً . وتبحر البواخر حاملة المسافرين والبضائع التجارية بصورة منتظمة من مسقط وتزور الموانئ الخليجية الأخرى وكذلك ميناء كراتشي في الهند .

توجد خمس سفن حربية بريطانية في الخليج العربي دائما وواحدة منها متمركزة في مسقط . وتتناوب السفن الحربية كل أسبوعين . إن السفن الحربية الخارجية لا تزور مسقط إلا نادراً . والسفينة الحربية الفرنسية من مدغشقر تزور مسقط ثلاث مرات في السنة كما تزورها سفينة حربية أمريكية أحياناً .

تكون درجة الحرارة عالية جداً في نوفمبر . لكن الرياح التي تهب من البحر ترطب درجات الحرارة . ولا تستطيع السفن والبواخر أن ترسو

قريباً من الساحل بسبب عدم تواجد الرصيف في مسقط . ويحتاج المسافر إلى النزول إلى مركب من الباخرة وعندما يكون مستوى المياه منخفضاً في الجزر لا يستطيع المسافر أن ينزل إلى ميناء مسقط حتى من المركب . وخليج مسقط مليء بالفشوت والصخور . وتوجد محطتان للفحم في مسقط إحداهما للإنجليز والثانية للفرنسيين .

توجد دكاكين كثيرة في المدينة لكن لا يوجد أي فندق من درجة ملائمة للأوروبيين . ويزود القاولون السفن باللحم والدجاج والليمون والخيار والخبز والمياه المعدنية والمعلبات .

أحياناً تشهد سفناً عربية ترفع علماً فرنسياً بالقرب من مسقط . هناك معاهدة بين فرنسا وعمان تعطي لفرنسا الحق في توفير الأمان للعرب من مدغشقر الساكنين في عمان، ورفع العلم الفرنسي على سفنهم . ويبلغ عدد السفن من هذا النوع حوالي ٣٠ ويشرف عليها القنصل الفرنسي .

وفي ٢٠ نوفمبر رحب بنا (العميد البحري رانشستاين وطاقمه) جلالة السلطان فيصل بن تركي . وترك لنا فينا اللقاء أثراً طيباً عن أخلاقه وثقافته وسلوكه الكريم . وتفضل جلالته بالترحيب بنا عند الباب وكان معه أخوه وابنه . وكان الحرس السلطاني مصطفاً ضباطاً وجنوداً بجانب جدران القصر . ولقد قدمت لجلالته ضباط الطراد اسكولد . إن جلالته ليس بكبير السن وترك أثراً طيباً علينا جميعاً . إنه لطيف ومثقف وبارع ورحب بنا بلطف وكياسة . قال لنا جلالته أنه يفرح كلما زارت سفينة روسية حربية ميناء مسقط . وأثناء مقابلته وجه جلالته لنا بعض الأسئلة عن طريق مترجم . مما أكد لنا بأنه كثير الإطلاع عن بناء سفن حربية حديثة وعما يدور في أوساط أوروبا والعالم . وتلقينا كرم الضيافة منه وتناولنا القهوة والمشروبات . ومن ثم أعرب عن رغبته في زيارة الطراد مما بعث بموجة من الفرح في نفوسنا .

وتفضل جلالته بزيارة الطراد مصطحباً أخاه وابنه والحاشية .

وبعد تفقده الطراد طلب جلالته من الفرقة الموسيقية عزف ترنيمة روسية . ولاحقاً نقل جلالته أطيب تهانيه إلى الإمبراطور الروسي وبأنه مسرور من زيارة السفينة الروسية ميناء مسقط . ودعونا السلطان للعشاء مع ضباط الطراد لكنه رفض ذلك بسبب صيام رمضان . ويهوى السلطان التقاط الصور كما صورنا صوراً عديدة مع جلالة السلطان .

اقترح السلطان جلب البضائع الروسية إلى عمان وبيعها هناك مما يربح التجار الروس كثيراً . والسلطان مولع بالموسيقى وقبل مغادرته الطراد استمع إلى ألحان عديدة . أنا وضباط الطراد سررنا كثيراً من شخصية السلطان وزيارته الطراد[٢١] .

لقد ذكرت وشرحت وأشرت جزئياً إلى وثيقتين تتعلقان بتاريخ عمان في حوزة الأرشيفات المركزية الرسمية في روسيا الفيدرالية كما أشرت إلى ثلاث وثائق في حوزة الأرشيفات البحرية المركزية الروسية .

ويقتنع أي باحث في التاريخ أو العلاقات الدولية سواء في روسيا أو الدول الخليجية وخاصة دول مجلس التعاون الخليجي، بأن الاتحاد الفيدرالي الروسي رغم بعده عن عمان فقد اهتم بدراستها . والأرشيفات الروسية التاريخية الموجودة في العاصمة السابقة لإمبراطورية روسيا سان بطرسبورج، غنية بالوثائق عن عمان . وتعالج تاريخها وبنيانها السياسي والاقتصادي وثقافتها وتقاليدها . وجاء ذكر معظم هذه الوثائق في كتاب عنوانه : **"إطلالة على تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية من خلال الوثائق الروسية - الجزء الأول"** أعده كل من الدكتور علي أباحسين، مدير مركز الوثائق التاريخية في البحرين والدكتورة يافعة يوسف جميل من جامعة سان بطرسبرج والدكتور جنادي جورياتشكين من جامعة موسكو، ونشر في ١٩٩٩م في المنامة، عاصمة البحرين متضمناً مقدمة شاملة دقيقة من سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة[٢٢] .

إن ظهور هذا الكتاب الذي أعده مركز الوثائق التاريخية _ البحرين تحت رعاية الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية، دليل آخر يؤكد أهمية استخدام الوثائق الروسية في دراسة بلدان الخليج العربي .

وإن تحليل الوثائق التي ذكرتها وقمت بدراستها آنفاً في هذا البحث يفيد إذ يمكن تقسيمها إلى فئتين رئيسيتين . والفئة الأولى تشمل الوثائق المكتوبة باللغة الروسية من قبل أشخاص غير رسميين . وكان منهم "سيرفبر" الذي زار عمان قبل الآخر وهو "ليف روشستاين" . ووجهت رسائلهما عن عمان إلى الإمبراطور الروسي اليكساندر الأول والسفير الروسي في فرنسا وتتضمن

معلومات قيمة عن عمان . غير أن اقتراحاتهما وتوصياتهما كما وردت في تلك الرسائل خطيرة جداً لأنها تهدف إلى التدخل الروسي ضد سلطنة عمان . ومن حسن الحظ لم تتحقق هذه الأفكار العدوانية لسيرفبر وليف روشستاين - مع أنهما لم يكونا روسيين أصلاً - ويرجع ذلك إلى الحكمة ومواجهة الحقائق للإدارة الروسية .

والوثائق الثلاث الأخرى المتعلقة بعمان مكتوبة من ضباط القوات البحرية الروسية والبائع المتجول للشركة الروسية للبواخر والتجارة . وهي واقعية أكثر وتتضمن معلومات مشوقة كثيرة وفي مقدمتها معلومات سياسية واقتصادية عن عمان كما كانت في بداية القرن العشرين تعكس وجهة النظر الرسمية للإمبراطورية الروسية تجاه عمان مستهدفة تأسيس العلاقات السياسية والتجارية بينهما مبنية على المنفعة المتبادلة .

الدكتور سيرجي جريجوريف

المصادر

1 - Afanasiy Nikitin. A Travel Across Three Seas, 1466 - 1472. Moscow 1980. In Russian p. 88 ; G. B. Goryachkin : Russia & the Arabian peninsula : The Origin of Cultural Relations. A Dialogue of Civilizations East-West. Moscow 1997. in Russian p. 174.

2 - Report Mr. Cerfberr's Proposal concerning the capture of the city of Muscat in Arabia for the purpose of a profitable trade' N1409 inventory N1 dossier N4564 belongs to the Fund compressing the documents and reports addressed personally to his Imperial Majesty - The Emperor of the Russian Empire and is kept in the Central State Archives of the Russian Federation, located in St. Petersburg. In French.

3 - Mazuri History of Sayed Said, etc. by Shaikh Mansur, translated from the original manuscript hitherto unpublished, London, 1819 in English.

4 - Report: "Mr. Cerfberr's proposal concerning the capture of the city of Muscat in Arabia for the purpose of a profitable trade" Fund N1409, Inventory N1, dossier N4564, p. 9; 6 Ibid, pp. 1, 2.

5 – ibid pp. 1, 2.

6 - op cit pp. 5 6.

7 - op cit pp. 5 6.

8 - op cit p. 7.

9 - Ibid, p. 10, 11.

10 - cit pp. 12.

11 - Scholar from Saint Petersburg Efim Rezvan has published some time ago in Moscow a book in Arabic concerning the visits of Russian Warships to the Arabian Gulf at the beginning of the 20th century named “Russian Ships in the Gulf 1899 - 1903. Moscow 1990.”

12 - G. B. Goryachkin & M. A. Kislova - "Bogoyavlensky's trip to the principalities of the Gulf". Moscow1999 in Russian.

13 - Klassing : "The State Central Naval Archives" Fund N417. Inventory N1, Dossiere N2548, pp. 2 - 13, in Russian.

14 - Ibid p. 4.

15 - Ibid, p. 12.

16 - Ibid, p. 12.

17 - Fund N417, Inv N1 Doss N2548 pp. 2 - 13, in Russian.

18 - Ibid, p. 32 - 34.

19 - Central Naval Archives, Fund N417, Inv N1, Doss N2548 pp. 67 - 96, in Russian.

20 - Ibid, pp. 67 - 68.

21 - Ibid, pp. 71 - 72.

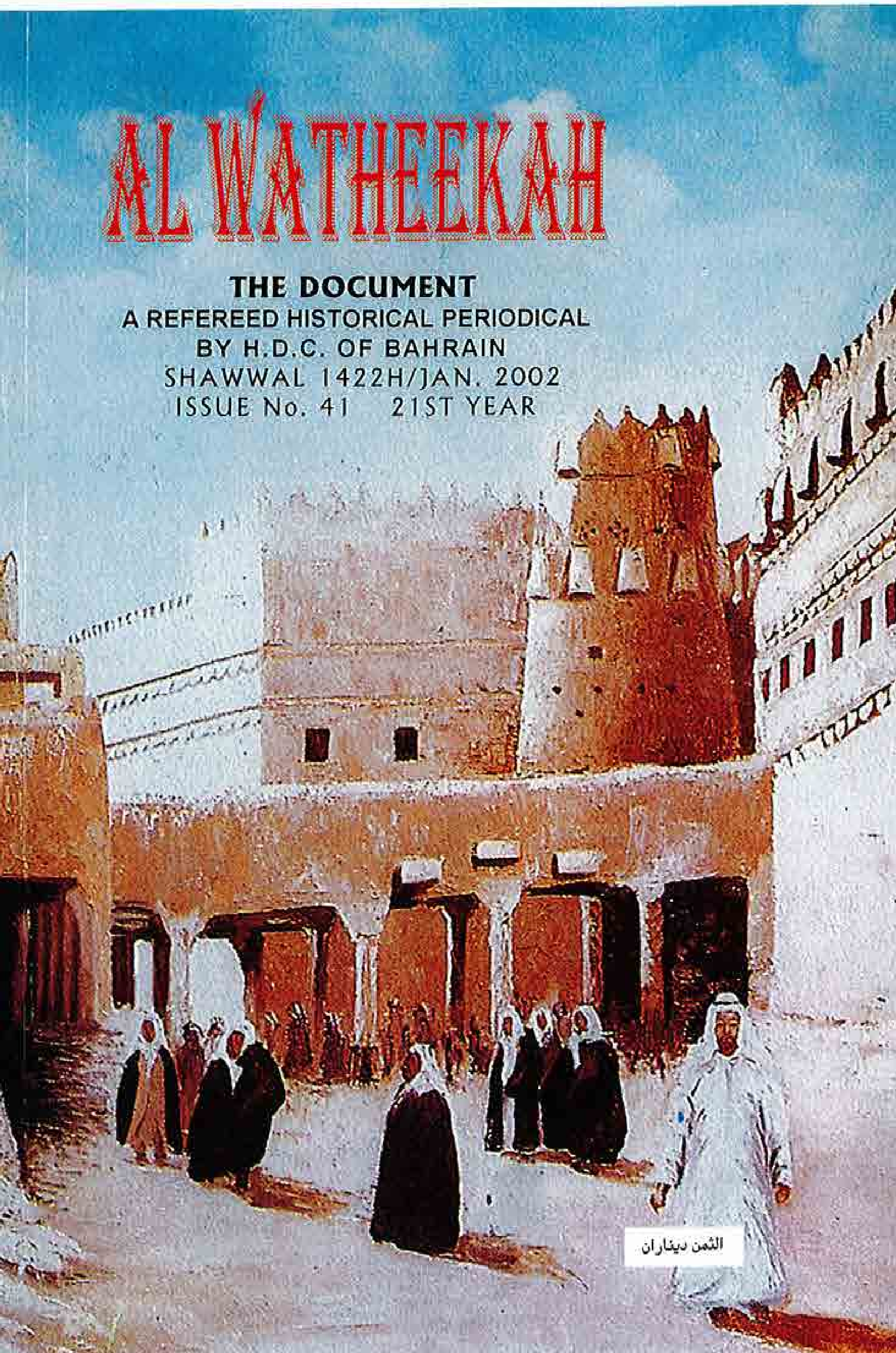
22 - Perspectives on the history of the Arab Gulf and the Arabian Island Through Russian Documents (Part 1) compiled by Dr. Ali Abahussain, Director of Historical Documents Center, Bahrain - Dr. Yafia yusuf Jameel, St. Petersburg University and Dr. Gennady Goryatsckin, Moscow University. Bahrain1419H - 1999. Introduction by H. E. Shaikh Abdulla Bin Khalid Al Khalifa, President of Historical Documents Center Bahrain & Secretary General, Centers of Studies & Documents of the Arab Gulf and the Arabian Island.

As a Supplement to this paper, I propose a number of photos, maps and pictures from the St. Petersburg Archives and Libraries concerning the Sultanate of Oman.

AL WATHEEKAH

THE DOCUMENT

A REFEREED HISTORICAL PERIODICAL
BY H.D.C. OF BAHRAIN
SHAWWAL 1422H/JAN. 2002
ISSUE No. 41   21ST YEAR



الثمن ديناران